**السّيميائيّات الطّبّيّة في (حيّ بن يقظان) لابن طفيل**

**د/ هـيام المعــمريّ**

**جامعة محمّد بن زايد للعلوم الإنسانيّة، الإمارات العربيّة المتّحدة**

**halmaamari10@gmail.com**

**المستخلص:**

يزخر الأدب العالميّ بأعمال صارت إرثًا عالميًّا للبشريّة جمعاء، وتحوّلت إلى أيقونات تحاكى وتحتذى. وتعدّ قصّة "حيّ بن يقظان" من روائع الأدب العالميّ الخالدة، وواحدة من تلك الآداب الّتي يكاد يُجمَع على دورانها في مختلف العصور، وتردّدها في عدد من اللّغات وعلى كثير من الألسنة. ولأهمّيّة هذا العمل العالميّ في مجالات شتّى؛ فقد تناولته العقول والأقلام بحثًا وحفرًا في معطياته الظّاهرة والباطنة، فكان حضوره في الدّرس السّيميائيّ، والأدبيّ، والفلسفيّ، والدّينيّ، والنّفسيّ، والاجتماعيّ، والاقتصاديّ... وغيرها من المجالات البحثيّة الّتي تظهر يومًا بعد آخر، مواكبة للعصر ومتطلّباته. ومن هذه المجالات المتجدّدة ذلك المجال الطّبّيّ الذّي يسعى إلى ربط العلم بالأدب، وإيجاد حلقة وصل بين المعارف العلميّة والعمليّة البحتة ونظيرتها الأدبيّة الخالصة؛ فيكون المزج بينهما مزجًا فريدًا، تختلط فيه الأمشاج، وتتولّد تلك الأعمال حمّالة الأوجه والقراءات. وفي (حيّ بن يقظان) لابن طفيل نجد شطرًا من كلّ هذا وذاك، وإمكانيّة تناول الشّق السّيميائيّ الطّبّيّ فيه، بنظرة تحاول البحث عن إشارات السّيميائيّات الطّبّيّة في الأدب العربيّ، وكيفيّة تناوله بلغة سرديّة، تتمخّض بالعلم والمعرقة والدّقّة في النّقل والشّرح والتّفسير والتّأويل، ولا تخلو -في الآن ذاته- من أخذٍ بجوانب لطيفة من السّرد الأدبيّ، والأسلوب القصصيّ المحبّب إلى النّفس الإنسانيّة. ويسعى هذا البحث إلى تتبّع كيفيّة هذا المزج، وهذا التّناول، عبر آليّات السّيميائيّات وتحليل الخطاب، ومعرفة مدى تأثير شخصيّة المؤلّف الفيلسوف والطّبيب السّارد فيها.

**كلمات مفتاحية:** إشارات، السّيميائيّات الطّبّيّة، حيّ بن يقظان، ابن طفيل، الطّبّ، السّرد، تحليل الخطاب.

**Medical Semiotics in )Hayy Ibn Yaqzan( by “Ibn Tufail”**

**Dr. Hayam Almaamari**

**Mohamed Bin Zayed University for Humanities, UAE**

**halmaamari10@gmail.com**

**Abstract:**

International literature abounds with works that have become a global heritage for all mankind, and have turned into icons that are imitated and emulated. The story of “Hay ibn Yaqzan” (Neighborhood of ibn Yaqzan) is considered one of the timeless masterpieces of international literature, and one of those literatures whose circulation in different eras is almost unanimous, and is repeated in a number of languages and on many tongues. Because of the importance of this global work in various fields; minds and pens dealt with it thoroughly in research and study in its apparent and hidden data. So, it was present in the Semiotic, literary, philosophical, religious, psychological, social, and economic studies... and other research fields that appear day after day, keeping up with the era and its requirements. Among these renewed fields is the medical field that seeks to link science with literature, and to find a link between purely scientific and practical knowledge and its purely literary counterpart. Their mixing together is a unique mixture, and those works are produced bearing facets and readings. In )Hayy Ibn Yaqzan( by “Ibn Tufail” we find part of all this and that, and the possibility of dealing with the medical part in it, with a view that tries to search for “Signs of medical semiotics in Arabic literature”, and how to deal with it in a narrative language. It is filled with science, knowledge, and accuracy of explanation, and interpretation. At the same time, it is not devoid of adopting gentle aspects of the literary narration, and the narrative style that is beloved to the human psyche. This research seeks to trace this mixing, and this approach through the mechanisms of semiotics and discourse analysis, and to know the extent of the influence of the personality of the author, the philosopher and the doctor who narrates it.

**Keywords:** signs, medical semiotics, Hayy ibn Yaqzan,Ibn Tufail,medicine, narration, discourse analysis.

**تمهيد**:

يمكن الوقوف في هذا التّمهيد لإيراد نبذة مختصرة عن المؤلَّف والمؤلِّف، كما يأتي:

*نبذة عن قصّة حيّ بن يقظان:*

هي قصّة رمزيّة، ذات مضامين فلسفيّة ودينيّة عميقة، مغلّفة بمسحة أدبيّة سرديّة، تبحث في علاقة الإنسان بما حوله، وكيفيّة اهتدائه إلى خالقه. وتدور حول طفل رضيع، يُدعى "حيّ بن يقظان"، تجده ظبية في جزيرة نائية؛ فتحنو عليه حنوّ الأمّ على صغيرها المفقود، وترعاه، حتّى وصوله سنّ السّابعة، فتضعف رويدًا رويدًا، ثمّ تموت أمامه؛ فيقف حزينًا، وحيدًا، عاجزًا عن معرفة سبب هذه الوفاة، ثمّ يكمل ما بدأه من رحلة استكشاف ما حوله، ومقارنة ذاته بالذّوات الأخرى، ومعرفة حقيقة الموت والحياة، والرّوح، والخلق والخالق؛ والتّمعّن في أسرار الوجود والموجودات، وإعمال العقل الحرّ اليقظ، والقلب السّليم، والفطرة النّقيّة الصّافية، والإدراك المستبصر بنور الحقّ واليقين، حتّى الاهتداء إلى الموجود الواجب الوجود.

وقد تأثّرت أعمال عدّة بهذا العمل الرّائد، وحاولت مجاراته، أو النّسج على منواله، حسب الهدف المراد، والأداة المستخدمة؛ فبرزت نماذج منها، مثل: "روبنسون كروزو" للكاتب الإنجليزيّ "دانييل ديفوDaniel Defoe" (1660–1731م)، وكتاب الأدغال "The Jungle Book" (1894م) للكاتب البريطانيّ "روديارد كبلنغ Rudyard Kipling" (1865–1936م)، وأسطورة طرزان... وغيرها. وأخرجت كثير منها في أعمال سينمائيّة، ورسوم متحرّكة أو "أفلام كارتون" عالميّة، وما زال التّأثّر والتّأثير باديًا حتّى اليوم.

*نبذة عن مؤلّف حيّ بن يقظان:*

تناول قصّة "حيّ بن يقظان" أكثر من عالم وفيلسوف مسلم؛ إذ بدأت القصّة على يد الشّيخ الرّئيس، أمير الأطبّاء "ابن سينا" (370هـ/980م–427هـ/1037م)، بعنوان "حيّ بن يقظان"، تلتها هذه القصّة بعنوان "رسالة حيّ بن يقظان" (وتفصيلا: "رسالة حيّ بن يقظان في أسرار الحكمة المشرقيّة استخلصها من درر جواهر ألفاظ الرّئيس أبي عليّ بن سينا")، "لابن طفيل" (المولود بين 494هـ و508هـ/1100م–581هـ/1185م)، ثمّ قصّة "الغربة الغربيّة" لشيخ الإشراق "شهاب الدّين السّهرورديّ" (549هـ/1115م–586هـ/1191م)، وختامًا قصّة "فاضل بن ناطق" "لابن النّفيس" (607هـ/1213م–687هـ/1288م) الطّبيب العربيّ المسلم الّذي اكتشف الدّورة الدّمويّة الصّغرى.

وقد وصلت القصّة على يد "ابن طفيل" مرحلة من الإبداع؛ جعلت الدّارسين يتّجهون إليها بالبحث، والتّحليل، والنّقد، والتّأويل.

وابن طفيل هو أبو بكر محمّد بن عبد الملك بن محمّد بن محمّد بن طُفَيل القيسيّ الأندلسيّ، من أهل وادي آش، بغرناطة (ابن الخطيب 2/478).

 قال عنه "لسان الدّين ابن الخطيب" (713–776هـ): إنّه "كان عالمًا، صدرًا، حكيمًا، فيلسوفًا، عارفًا بالمقالات والآراء، كلفًا بالحكمة المشرقيّة، محقّقًا، متصوّفًا، طبيبًا ماهرًا، فقيهًا بارع الأدب، ناظمًا، ناثرًا، مشاركًا في جملة من الفنون" (2/479).

توفّي بمراكش، سنة (581هـ)، وحضر السّلطان الموحّديّ "أبو يوسف يعقوب المنصور" (545هـ/1160م–595هـ/1199م) جنازته، وكان طبيبه الخاصّ، وصديقه الأثير (ابن الخطيب 2/482).

**طبّ ابن طفيل:**

لم تذكر المصادر الّتي تحدّثت عن "ابن طفيل" -حسب ما وقعت عليه اليد في هذا الموضوع- أنّ له كثيرًا من المؤلّفات في الطّبّ، وقد أشار "لسان الدّين ابن الخطيب" إلى أنّ "ابن طفيل" له رسالة حيّ بن يقظان، والأرجوزة الطّبّيّة المجهولة، وغير ذلك (2/479). وأورد "ابن أبي أصيبعة" (ت 668هـ) في (عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء) في ترجمة "ابن رشد" كتابًا عنوانه "مراجعات ومباحثات بين أبي بكر بن الطّفيل وبين ابن رشد، في رسمه للدّواء في كتابه الموسوم بالكلّيّات" (533).

**السّيميائيّات الطّبّيّة:**

تُعرَف السّيميائيّات (Semiotics) بأنّها علم الإشارات أو العلامات اللّغويّة وغير اللّغويّة، وترى أنّ كلّ ما في هذا النّظام الكونيّ هو إشارة لشيء ما (عليّ "المعمريّ" 12). إنّها -تحديدًا- "العلم الذّي يدرس بنية الإشارات وعلائقها في هذا الكون، ويدرس توزّعها ووظائفها والدّاخليّة والخارجيّة" (الوعر 9). وتُعدّ من العلوم البينيّة التّي تتداخل مع كثير من العلوم والمعارف الأخرى، حتّى بات فصلها، أو تخصيصها بعلم واحد، أو بموضوع دون غيره، أمرًا في غاية الصّعوبة، إن لم يكن مستحيلا. وتسعى السّيميائيّات إلى توظيف أدواتها المتّعدّدة وآليّاتها المتنوّعة لخدمة ما يُراد درسه. وفي (حيّ ين يقظان)، يتداخل الطّب والسّرد بشكل واضح، مع علوم أخرى، ليتشّكل في النّهاية هذا العمل الجامع بين كثير من تلك العلوم، وتبرز من بينها "السّيميائيّة أو السّيميائيّات الطّبّيّة" (Medical Semiotics) التّي تُعنى بدراسة الإشارات، أو العلامات الطّبّيّة في هذا العمل أو ذاك. ويَرِد مصطلحا (Semiology) و(Symptomatology) في القاموس الطّبّيّ ليترجما بـــ"عِلم أعراض المرض"، ويوافقهما في هذا المنحى مصطلح (Semiotic = Semeiotic) الّذي يترجم بــ"أعراضيّ- متعلّق بأعراض المرض". (حِتّي 799)

وتشمل السّيميائيّات الطبية: "دراسة الأعراض والعلامات الجسديّة والعلامات المختبريّة وأخذ التّاريخ والفحص البدنيّ." (G. Alejandro 387–390).

**سرد الطّبّ في قصّة (حيّ بن يقظان):**

لجأ ابن طفيل إلى توظيف السّرد في خدمة ما يريد إيصاله من أفكار ورؤى فلسفيّة ودينيّة عميقة، ممزوجة بعلوم كثيرة كالسّيميائيّات، والطّبّ، والفلك، وعلم النّفس... وغيرها؛ ممّا قد يصعب على العامّة فهمها أو إدارك مغزاها مباشرة؛ فكان استخدام القالب الحكائيّ المحبّب إلى النّفس البشريّة، وتوظيف عناصره، من شخصيّات، وزمان، ومكان، وأحداث، تحرّكت ضمن هدف معلوم، وحبكة مرسومة مذ بدء خطّ القصّ إلى انتهائه، بما فيها من عقدة، وتصاعد، وحتى الوصول إلى النّهاية المطلوبة، وباستخدام الوصف، والحوار الذّاتيّ "المونولوج"، أو الحوار "الضّمنيّ" مع الآخر إن أمكن. فكانت الشّخصيّة الرّئيسة والمتطوّرة أو النّامية هي شخصيّة حيّ بن يقظان، وجاءت شخصيّات ثانويّة أخرى ليؤدّي دورها المنوط بها، كالغزالة، وأبسال، وسالمان، تلتها شخصيّات هامشيّة أخرى كوالدة حيّ بن يقظان في بداية القصّة، وأهل الجزيرة الّتي ذهب إليها مدّة ثمّ عاد. ولتدور أحداث متتالية، ضمن إطار زمانيّ ومكانيّ مناسب، وليتمثّل ابن طفيل في صورة السّارد العليم، المحرّك كلّ وصغيرة وكبيرة في هذه القصّة.

**سيميائيّات الأسماء:**

إنّ أوّل ما يُلمح من إشارات سيميائيّة في سرد خطاب حيّ بن يقظان هو الاسم، هذا الاسم الذّي اختير ليكون عنوان القصّة، وليمثّل الشّخصيّة الرّئيسة في العمل كلّه، وقد تلته كلمة "يقظان" في التّركيب، وألحقت به في الوصف، وبينهما كلمة "ابن" على عادة الأسماء العربيّة؛ لتكوّن معًا اسم الشّخصيّة المعنيّة، ولتقويّ كلّ كلمة أختها في الدّلالة. ثم يأتي اختيار آخر لاسمَي "أبسال" و"سالمان" في آخر القصّة، وفي ظهور قصير وملهم.

و"حيّ" اسم لم يُختر إلّا لهدف مرسوم منذ اللّحظات الأولى لتلقّيه؛ سماعًا أو قراءة، وحتّى الختام؛ فـ"حيّ" آت من الحياة؛ حياة بولادة حقيقيّة طبيعيّة، أو مخالفة المألوف. حياة جسديّة، وحياة روحيّة. حياة الكائن الحيّ؛ إنسانًا كان أو حيوانًا. هي الحياة الدّنيا، والحياة الآخرة. والحياة هي الحَيَوان كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت 64).

و"حيّ" كما تشير إليه القصّة في مجملها، هو من يدرك تلك الحيوات بفطنة، وتأمّل، وتبصّر، وتدبّر، وتحليل، وتأويل. وهو ما يستلزم إعمال عقل حرّ يقظ منتبه، وفكر واع، وقلب سليم، وفطرة صافية، ونفس مطمئّة، وروح سامية؛ للوصول بكلّ هذه العدّة والعتاد إلى المحيي، الخالق، الموجد، الموجود الواجب الوجود.

وليبقى حيًّا يقظا في الأذهان والأرواح، ما شاع الإنسان، وتكرّر الزّمان والمكان.

و"حيّ بن يقظان" هو "رمزٌ للعقل الفعّال" كما قال ابن أبي أصبيعة في طبقات الأطبّاء (457).

أمّا اسما شخصيّتي الرّجلين الآخرين فتعدّدت معانيهما وتشعّبت أصولهما وطرق تأويلهما؛ فقد يشيران إلى التّعامل مع التّراث والعلم والدّين؛ كما يمكن أن يوافق أحدهما شخصيّة "حيّ"، ويخالفه الآخر؛ فأمّا الاسم الأوّل فهو "سلامان"، وقد يشير إلى إيثار السّلامة في هذا السّياق؛ باتّباع الشّرع والنّقل وملازمة الجماعة وترك العزلة، وكأنّه بهذا التّخريج يسير سير معنى الاسم العربيّ، وأما الاسم الثّاني فمختلف في رسمه بين أكثر من رسم وتأويل، ومن ذلك: "أبسال" و"أسال"؛ فإن كان على رسم "أبسال" (بإثبات حرف الباء، وهو حرف الهجاء الثّاني من حروف العربيّة؛ تفرقة بينه وبين حرف الياء؛ آخر حروف العربيّة)، فإنّه قد يشير إلى البسالة، أي الشّجاعة والإقدام، في الاعتماد على الذّات، والتّفكير، وإعمال العقل... كما ستأتي تفسيرات أخرى له بعد فقرات قليلة. ويرد هذا الرّسم في طبعة (هنداويّ 48)، وتقديم صلاح فضل (ابن طفيل 142)، وإن كان الرّسم على "أسال" في رواية أخرى، كما لدى (محمود 122)، (بإثبات همزة القطع، فالسّين، فألف مدّ لا همزة)، وكأنّه تخفيف من الفعل أسأل)، فقد يشير إلى كثرة السّؤال وإعمال العقل، والبحث عن الحقيقة. وقد تأتي الكلمة من الفعل أسال إسالة، بمعنى أجراه وجعله ينساب ويتدفّق، بما قد يتناسب وإعمال العقل، وتدفّق أفكاره، وإطلاق العنان، دون تقييد أو تحجيم، وهو ما يتوافق وشخصيّة رجل الدّين الّذي يسعى إلى الاجتهاد والميل إلى إعمال العقل والتّصوّف.

وقد أشار ابن طفيل ذاته إلى دلالة هذين الاسمين حين قال: "فأما أبسال فكان أشد غوصًا على الباطن وأكثر عثورًا على المعاني الرّوحانيّة وأطمع في التّأويل. وأما سلامان صاحبه فكان أكثر احتفاظًا بالظّاهر وأشد بُعدًا عن التّأويل وأوقف عن التّصرّف والتّأمّل. وكلاهما مُجِدٌّ في الأعمال الظّاهرة ومحاسبة النّفس ومجاهدة الهوى.

وكان في تلك الشّريعة أقوال تحمل على العزلة والانفراد وتدلّ على أن الفوز والنّجاة فيهما، وأقوال أخر تحمل على المعاشرة وملازمة الجماعة.

فتعلَّق أبسال بطلب العزلة ورجّح القول فيها لما كان في طباعه من دوام الفكرة وملازمة العبرة والغوص على المعاني، وأكثر ما كان يتأتّى له أمله من ذلك بالانفراد.

وتعلّق سلامان بملازمة الجماعة ورجّح القول فيها لما كان في طباعه من الجبن عن الفكرة والتّصرّف. فكانت ملازمته الجماعة عنده مما يدرأ الوسواس ويزيل الظّنون المعترضة ويعيذ من همزات الشّياطين. وكان اختلافهما في هذا الرّأي سبب افتراقهما" (هنداويّ 48).

وترد آراء أخرى تلمح إلى أصول هذه الأسماء والقصّة بأسرها، كما في تعريف عبد العزيز نبوي بقصّة حيّ بن يقظان، قائلا إنّها: "قصّة رمزيّة تنتمي في أصولها الأولى -في أسماء أبطالها على الأقلّ- إلى ما قبل الحضارة الإسلاميّة، وقد ظهرت بعد الإسلام بنحو أربعة قرون، على يد الفيلسوف الطّبيب ابن سينا (ت 428هـ)، إذ له قصّتان تحملان عنوانين مماثلين لما جاء في قصّة ابن طفيل، أحدهما "حيّ بن يقظان" والآخر "سلامان وأبسال"..." (ابن طفيل 8).

وفي "تسع رسائل في الحكمة والطّبيعيّات" للشّيخ الرّئيس ابن سينا، يرد تعليق في نهاية قصّة "سلامان وأبسال، بأنّ ابن سينا قد أشار إليهما كذلك في كتابه "الإشارات والعبارات"، بقوله: "فاعلم أنّ سلامان مثلٌ ضرب لك، وأنّ أبسال مثل ضرب لدرجتك في العرفان إن كنت من أهله، ثمّ حلّ الرّمز إن أطقت" (ص169). ويستمرّ التّعليق بأنّ "نصير الدّين الطّوسيّ" (ت 672هـ) قد شرح ذلك بقوله: "سلامان شجرة واسم موضع، وهو أيضًا من أسماء الرّجال، والأبسال التّحريم، وأبسلت فلانًا إذا أسلمته إلى الهلكة أو رهقته، والبسل الحبس والمنع، والّذي ذكره الشّيخ ههنا هو من جنس الأحاجيّ الّتي تذكر فيها صفات يختصّ مجموعها بشيء اختصاصًا بعيدًا عن الفهم فيمكن الاهتداء منها إليه، ولا هي من القصص المشهورة، بل هما لفظتان وضعهما الشّيخ لبعض الأمور، وامتثال ذلك ممّا يستحيل أن يستقلّ العقل بالوقوف عليه، فإذا تكليف الشّيخ حلّه يجري مجرى التّكليف بمعرفة الغيب. وأجود ما قيل فيه إنّ المراد بسلامان آدم عليه السّلام، وأبسال الجنّة، فكأنّه قال المراد بآدم نفسك النّاطقة، وبالجنّة درجات سعادتك..." ( 177).

ويورد "نصير الدّين الطّوسيّ" بعد هذا رأيًا آخر، يغاير ما جاء به من أنّ الشّيخ الرّئيس ابن سينا هو من ابتدع هذين الاسمين، فقول: "وقد سمعت بعض الأفاضل بخراسان يذكر أنّ ابن الأعرابيّ أورد في كتابه الموسوم بالنّوادر قصّةً ذكر فيها رجلين وقعا في أسر قوم، أحدهما مشهور بالخير اسمه سلامان، والآخر مشهور بالشّرّ اسمه أبسال، من قبيلة جرهم، ففدي سلامان لشهرته بالسّلامة، وأنقذ من الأسر، وأبسال الجرهميّ لشهرته بالشّرّ أسر حتّى هلك، وصار منهما في العرب مثل يذكر فيه خلاص سلامان وهلاك أبسال صاحبه..." (178).

**إشارات السّيميائيّات الطّبّيّة في (حيّ بن يقظان):**

تبرز في موضوع سرد الطّبّ في قصّة "حيّ بن يقظان" إشارات واضحة إلى قضيّة الرّبط بين الجسد والرّوح، وبأنّ الرّوح هي المحرّك الأساس لهذا الجسد؛ فإن غادرته يومًا ما؛ فلا حياة، ولا حركة، ولا بقاء.

وتظهر هنا الخلفيّة المعرفيّة الطّبّيّة لهذا الطّبيب المشهور الّذي كان طبيب الخلفاء، المشهود له، والمفضّل لديهم دون سواه، وهو حال الخليفة الموحّدي "أبي يعقوب يوسف"، ثمّ ابنه من بعده الخليفة "أبي يوسف يعقوب".

ويؤكّد هذا الصّدور الطّبّيّ في القصّة كون الشّيخ الرّئيس "ابن سينا" هو الأسبق في ابتكار قصّة "حيّ بن يقظان"، وهو الطّبيب الحاذق، الموصوف بنابغة زمانه، ومفخرة عصره، فجاء "ابن طفيل" وحذا حذوه، وأعطى هذه القصّة مسحة أدبيّة، تخفّف جفاف المادّة العلميّة، وعمق النّظرة الفلسفيّة، وحساسيّة المعتقد الدّينيّ.

وفيما يلي بعض الإشارات الطّبّيّة في سرد هذه القصّة:

1. **أصل الخلق والولادة:**

ابتدأ "ابن طفيل" قصّته بذكر نشوء "حيّ بن يقظان"؛ فهل هو إنسان طبيعيّ، شأنه شأن البشر عامّة، وُلِد من أب وأمّ، أم هو مغاير لتلك النّشأة المعهودة؛ بتولّده من الأرض، دون أب وأمّ بشريّين؟

*الرّواية الأولى:*

يقول "ابن طفيل" في هذا، وفي أولى حروف قصّته:

"ذكر سلفنا الصّالح -رضي لله عنهم- أنّ جزيرة من جزائر الهند الّتي تحت خط الاستواء، وهي الجزيرة الّتي يتولَّد بها الإنسان من غير أمّ ولا أب وبها شجر يثمر نساء، وهي الّتي ذكر المسعودي أنّها جزيرة الوقواق؛ لأنّ تلك الجزيرة أعدل بقاع الأرض هواءً، وأتممها لشروق النّور الأعلى عليها استعدادًا، وإن كان ذلك خلاف ما يراه جمهور الفلاسفة وكبار الأطبّاء؛ فإنّهم يرون أن أعدل ما في المعمورة الإقليم الرّابع..." ( حليم 67)، و(زيدان 170) و(هنداويّ 5).

تأتي هذه المقدّمة لتلمح إلى إمكانيّة وجود جزيرة واقعيّة بهذه المواصفات؛ فهي جزيرة لها اسمها، وهي "جزيرة الوقواق"، وقد استشهد ابن طفيل بأنّ "المسعوديّ" قد ذكرها، وهو "أبو الحسن عليّ بن الحسين المسعوديّ" (~283هـ/~896م–346هـ/957م)، المؤرّخ، والجغرافيّ، والرّحّالة، والعالم العربيّ المشهور، صاحب كتاب "مروج الذّهب ومعادن الجوهر". كما استند ابن طفيل إلى ذكر السّلف الصّالح الّذين دعا لهم برضوان الله عليهم، في تلميح آخر إلى إمكانيّة القبول بذاك الرّأي، وبأنّه، على الوجه الآخر، ناقل ما قالوه، وليس بمبتدعه.

وبعد ذلك يبدأ ابن طفيل في سردٍ طويلٍ، امتدّ صفحات، لطبيعة تلك الجزيرة، وإمكانيّةِ تخلّق بشرٍ من أخلاطها ومكوّناتها المتعدّدة، تتداخل فيه علوم شتّى من طبّ، وفلك، وفلسفة، ومنطق، ودين، وجغرافيا، وطبيعة وما وراءها (حليم 67، 70–72 وهنداويّ 5–9). ومن ذلك قوله:

"وكان المتكفِّل بالحسّ هو الدّماغ، والمتكفّل بالغذاء هو الكبد. واحتاج كلّ واحد من هذين إليه في أن يمدّها بحرارته وبالقوى المخصوصة بهما الّتي أصلها منه؛ فانتسجت بينهما لذلك كلّه مسالك وطرق، بعضها أوسع من بعض، بحسب ما تدعو إليه الضّرورة؛ فكانت الشّرايين والعروق.

ثمّ ما زالوا يصفون الخلقة كلّها، والأعضاء بجملتها، على حسب ما وصفه الطّبيعيّون في خلقة الجنين في الرّحم، لم يغادروا من ذلك شيئًا، إلى أن كمل خلقه وتمّت أعضاؤه وحصل في حدِّ خروج الجنين من البطن.

واستعانوا في وصف كمال ذلك بتلك الطّينة الكبيرة المتخمّرة، وأنّها كانت قد تهيّأت لأن يتخلَّق منها كلّ ما يُحتاج إليه في خلق الإنسان من الأغشية المجلِّلة لجملة بدنه وغيرها، فلمّا كمُل انشقّت عنه تلك الأغشية بشبه المخاض، وتصدّع باقي الطّينة إذ كان قد لحقه الجفاف.

ثمّ استغاث ذلك الطّفل؛ عند فناء مادة غذائه واشتداد جوعه؛ فلبّته ظبية فقدت طلاها" (حليم 72 وهنداويّ 9).

*الرّواية الثّانية:*

وفيها يذكر ابن طفيل قصّةُ يمكن أن تقع في كثير من الأزمنة والأمكنة؛ وهي قصّة حاكم شديد العزّة والحميّة، كانت له أخت بارعة الجمال، لم يرض لها من يستحقّها زوجا؛ فتزوّجت، سرًّا، بقريب لها، يُدعى "يقظان"، وحملت منه، ثمّ وضعت طفلًا؛ فخافت من بطش أخيها، ولم تجد بدًّا من إلقائه في اليمّ، مستودعة إيّاه الله الرّحمن الرّحيم، وليصل التّابوت إلى تلك الجزيرة النّائية، وتجده الظّبية (حليم 69 وهنداويّ 6-7)، في قصّة تتناصّ وقصّة أمّ سيّدنا موسى عليه السّلام، وخوفها من بطش فرعون وجنوده.

وبين الرّوايتين، وابتداء ابن طفيل قصّته بـــ"ذَكرَ سلفنا الصّالح"، وقوله: "ومنهم من أنكر ذلك وروى من أمره خبرًا نقصُّه عليك"، لا يرجّح أحد الرّأيين على الآخر؛ تاركًا لمتلقّيه إعمال العقل والتّفكير في هذا وذاك، بعد أن بسط له الآراء، والحجج والبراهين، وإن قيل إنّ ذاك التّولّد من رحم الأرض الأمّ ما هو إلّا تعبير عن آراء فلسفيّة، ترى أنّ الإنسان وليد الطّبيعة في الأصل، ولم ينزل من السّماء جرّاء الخطيئة الّتي اقترفها.

ولربّما أحالت قصّة أصل "حيّ بن يقظان" -بشكل أو بآخر- إلى قصّة الخلق الأوّل، في خلق سيّدنا آدم عليه السّلام، أبي البشر، من غير أب أو أمّ، وبأنّه كان الإنسان الأوّل الّذي سكن هذه الأرض، بمعيّة حوّاء، لتبدأ رحلة استكشاف الحياة الدّنيويّة، ومخلوقاتها، ومعرفة عظمة الخالق في خلقه، وتدبّر بديع صنعه، والتّقرّب إليه، بعد أن عرفه آدم عليه السّلام حقّ معرفته.

وكأنّ قصّة حيّ في معرفة الخالق عزّ وجلّ بدأت بداية معاكسة لقصّة سيّدنا آدم عليه السّلام؛ إذ يكرم الله عوّ وجلّ عبده آدم بمعرفته منذ لحظات حياته الأولى، ويمنّ عليه بالتّحدّث إليه، والإنعام عليه بالزّوجة وبالجنان والنّعيم العظيم، دون جهد منه في تحصيل ما يريد، لكنّ حادثة وسوسة الشّيطان له، تهبط به إلى الأرض بعدما تاب واستغفر ربّه وأناب، وليبدأ من جديد حياة دنيويّة، يتعلّم منها، ويعبد ربّه حقّ عبادته، ويتأمّل في عظيم صنعه وملكوته، مؤمّلًا لقاءه سبحانه، طاهرًا مطهّرًا، بينما يتعرّف حيّ ربّه، وحيدًا معزولًا، عن طريق التّجربة والمشاهدة والبحث عن سرّ الوجود وأصله، بإعمال عقله الحيّ اليقظ، وإدراكه المستبصر بنور الحقّ، وباتّباع فطرته السّليمة، ويفني عمره حتّى سنّ استحكام العقل والوعي والحكمة، ليهديه ربّه إليه، ويؤمن يقينًا، وبالأدلّة القاطعة، بالموجود الواجب الوجود.

1. **تشريح الجثّة، والوصول إلى القلب:**

تطرّق "ابن طفيل" إلى موضوع الطّبّ في أكثر من موضع في قصّة "حيّ بن يقظان"، لعلّ من أشهرها، وأوضحها، تلك الّتي تناول فيها كيفيّة تشريح جثّة الظّبية، والوصول إلى القلب الّذي كان له كذلك نصيب الأسد من الوصف الأدقّ والأوفى، ومن المساحة الكتابيّة تبعًا لذلك؛ إذ امتدّ الوصف على مدى صفحتين كاملتين تقريبًا (حليم 77–79 وهنداويّ 13-14).

وكان هذا من أكبر المواضع السّرديّة الطبّيّة لهذا التّشريح؛ إذ تحدّث عنه بإسهاب، وفصّل فيه تفصيلا لا يصل إليه إلّا عارف به وحاذق. وهو تشريح غاية في الدّقّة والإتقان، ووصفٌ ينمّ عن معرفة طبّيّة صادرة عن طبيب ماهر، وعالم تشريح فذّ، قياسًا بما لديه من أدوات ذلك العصر.

ويحدث تشريح الجثّة (autopsy) طبّيُّا، أو فحصها، أو فتحها؛ لتحديد أسباب الوفاة عادة (حِتّي 91).

وهنا تكمن المفارقة الكبيرة (Paradox) الّتي توردها القصّة؛ في تشريح الطّفل حيّ جثّة الظّبية؛ لمعرفة سبب موتها؛ إذ كيف يتأتّى لطفل في السّابعة من عمره أن يشرّح بهذه الكيفيّة الّتي يتعلّمها طلبة الطّبّ في الجامعات، والكلّيّات التّخصّصيّة، والمعاهد العلميّة المؤهّلة، وقد تلقَوا من العلم ما تلقّوه، وبلغوا من العمر والجلَد ما يساعدهم على احتمال طبيعة التّشريح، وأدواته ومشارطه على اختلاف أعدادها وأشكالها وتسمياتها، وما فيه من دماء، وأجساد مسجّاة، وما يستدعي ذلك من مراعاة إجراءات السّلامة، والتّعقيم، والدّقّة والحذر الشّديدين!

وإن كان الأمر كذلك في حالات التّشريح عامّة؛ فما الحال وتشريح القلب وما يقتضيه من اتّصاف بأعلى درجات التّركيز، والاحتراف، والدّقة، والوعي!

ويعرف "التّشريح" (anatomy) طبّيّا بأنّه دراسة بنية الجسم، وشكله، ووظائفه (حِتّي 46).

وفي المقابل الطّبّيّ الدّقيق يبرز الجانب السّرديّ واللّغويّ الرّقيق؛ ببيان إحساس الحزن والحيرة في معرفة ما حدث لهذه الظّبية الأمّ فجأة.

ويلحظ من سرد هذه الواقعة التّدرّج في بدء عمليّة التّشريح كما يلي (حليم 77–79 وهنداويّ 13-14):

1. البحث عن سبب الوفاة.
2. البحث عن مكان العضو الّذي سبّب الوفاة: "فعزم على شق صدرها وتفتيش ما فيه" (حليم 77 وهنداويّ 13). ودراسة الأعراض والعلامات الجسديّة والفحص البدنيّ... وهذا ما يتوافق وتعريف السّيميائيّات الطّبّيّة.
3. بدء التّشريح الفعليّ بعد تحديد الموضع الّذي سينطلق منه في رحلة البحث عن العضو المطلوب: "فكان الصّدر هو المنطلق، مرورًا بالرّئة، ووصولًا إلى القلب" (حليم 77 وهنداويّ 13).
4. ذكرأدوات التّشريح المستخدمة، "فاتّخذ من كسور الأحجار الصّلدة وشقوق القصب اليابسة أشباه السّكاكين، وشقّ بها بين أضلاعها. (...) فحاول شقَّه، فصعب عليه لعدم الآلات، ولأنّها لم تكن إلّا من الحجارة والقصب، فاستجدّها ثانية واستحدّها" (حليم 77 وهنداويّ 13).
5. استخدام مصطلحات طبّيّة لتسمية الأعضاء بأسمائها العلميّة الدّقيقة، مثل: القلب، والرّئة، والحجاب المستبطن، والأضلاع، والأعصاب، ووسط الصّدر، وغشاء القلب، والنّصف الأيمن، والآخر الأيسر، والدّم، إضافة إلى كلمة "العضو" في حدّ ذاته؛ للتّعبير عن أجزاء الجسم الحيّ أو الجسد الميت.
6. تفصيل القول في تشريح القلب، وذكر حجراته، والتّكنية عن الحجرة بالبيت... وقبله ذكر الرّئة بقسميها.
7. ملاحظة رباط القلب الّذي يحمله.
8. اكتشاف الدّم المتخثّر في جزء من القلب.
9. فقدان الأمل.
10. النّفور من الجثّة بعد تغيّر رائحتها وإنتانها بعد عمليّة التّشريح وتعرّضها للهواء.
11. دفن الجثّة، بعد رؤية فعل الغراب وهو يدفن أخاه.

تبرز في حادثة دفن الغراب إشارة واضحة، وتناصّ ظاهر، وجانب جليّ آخر، وهو الجانب الدّينيّ، والمقتبس من قصّة "قابيل وهابيل" ابني سيّدنا آدم عليه السّلام، في قصّة القتل المشهورة الّتي سردها الله عزّ وجلّ إلينا في محكم تنزيله العزيز، حين قال جلّ في علاه:

﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿27﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿28﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿29﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿30﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (المائدة 27–31).

واللّافت أنّ "ابن طفيل" تناصّ مع قصّة هابيل وقابيل، والغرابين، في إشارة عائدة إلى الفطرة الإنسانيّة الأولى، وقصّة القتل الأولى في تاريخ البشريّة، واللّجوء مثلها في هذه القصّة إلى طريقة الدّفن نفسها، وإلى الاسترشاد بالدّافن نفسه، وهو الغراب، وليبقى الاهتداء والمرشد إليه هو نفسه منذ ذلك الحين، حيث لا بشر في القصّة الأولى غيرهما في تلك البقعة، باستثناء والديهما وأختيهما في مكان آخر يبعد عنهما، وحيث لا بشر مطلقًا مع حيّ في هذه البقعة من الجزيرة النّائية، والخالية من أيّ بشر، أو أب أو أمّ مرشدَين، أو أحد سواهما، قريب الصّلة كان أم بعيدًا.

فالدّفن هو الدّفن، والحفرة هي الحفرة، والمبعوث في القصّتين هو هو، والبُعد عن البشر والأنظار، والمدفون يستحقّ الدّفن، سواء أكان جثمانًا بشريًّا مقتولا، أم جثّة حيوانيّة مشرّحة حلّت يومًا محلّ الأمّ، والرّوح قد غادرت في النّهاية هذا وذاك.

وكأنّ بحادثة الدّفن هذه دلالة على أنّ العقل والنّفس يسيران إلى العمل بالفطرة، وأنّ الفطرة الحقّة هنا هي فطرة الدّين الّذي جُبل عليه الإنسان لمعرفة خالقه، وإن كان بمعزل عن بني جلدته، وتعرّض لحادثة هي الأولى له.

1. **طبّ الحواسّ، والبحث في كنه الرّوح:**

بعد مضيّ سبعة أعوام على رعاية الظّبية الطّفل، واعتنائها به، تأتي سنّة الحياة من كِبَر عمر الأمّ وتولّي الابن رعايتها؛ فما إن أسنَّت وضعفت حتّى "كان يرتاد بها المراعي الخصبة ويجتني لها الثمّرات الحلوة ويطعمها، وما زال الهزال والضّعف يستولي عليها ويتوالى إلى أن أدركها الموت.. فسكنت حركاتها بالجملة وتعطّلت جميع أفعالها" (حليم 75 وفي هنداويّ "الهزل" 11).

وبحادثة الموت هذه تحلّ الصّدمة الأولى في حياة هذا الطّفل، ويبدأ معها رحلة محاولة البحث عن سبب موت أمّه الظّبية، وتتبّع الأعراض والعلامات الجسديّة والفحص البدنيّ المؤدّية إلى ذلك؛ فكان يقف على الحواسّ الأساسيّة الّتي يتمتّع بها الكائن الحيّ، ويحيا بها، من سمع، وبصر، وشمّ. وكان هذا ضمن تجاربه الأولى في معرفة كنه هذه الحواسّ، ومصدرها، وكيفيّة عملها، بالفحص، والمقارنة بين حواسّه وأعضائها، وبين حواسّ الظّبّيّة وأعضائها؛ فيناديها بأعلى صوته، وينظر إليها، ويحاول البحث عن الآفة الّتي اعترتها، والعوائق الّتي اعترضت السّمع والرّؤية والشّمّ لديها؛ ليزيلها، وتعود إلى سابق عهدها، مثلما كان يحدث معه إن هو أغمض عينيه، أو سدّ أذنيه، أو أغلق أنفه بيديه (حليم 75-76 وهنداويّ 12).

وفي موضع آخر يتحدّث ابن طفيل عن الشّابّ حيّ، وقد تحلّى بالخبرة والدّراية بعد أن قضى سنوات عمره الأولى في البحث والاستكشاف، والمقارنة، والممارسة، والتّشريح، وصناعة الأدوات المناسبة لأغراض عدّة، وتوظيف النّار في تلبيه كثير من احتياجاته في التّغذية والتّدفئة والحماية، حتّى وصل سنّ الحادية والعشرين.

وكان من ذلك اهتداؤه إلى معرفة الحواسّ وأعضائها، وأعصابها، ووظائفها، والتّفرقة بين موضع كلّ واحدة وأخرى. وعَلِم أنّ الرّوح السّاكنة في الأجساد واحدة، وإن تنوّعت تلك الأجساد، وهي باقية فيها ما قُدّر لها ذلك؛ فإن غادرتها تعطّلت تلك الحواسّ، وبردت الأعضاء وسكنت.

وفي هذا يقول ابن طفيل عن بطله الشّابّ المستبصّر بالتّجربة والبرهان، ونور الحقّ العلويّ:

"كذلك، ذلك الرّوح الحيوانيّ واحد، وإذا عمل بآلة العين كان فعله إبصارًا، وإذا عمل بآلة الآذن كان فعله سمعًا، وإذا عمل بآلة الأنف كان فعله شمًّا، وإذا عمل بآلة اللّسان كان فعله ذوقًا، وإذا عمل بالجلد واللّحم كان فعله لمسًا، وإذا عمل بالعضد كان فعله حركة، وإذا عمل بالكبد كان فعله غذاءً واغتذاءً. ولكلّ واحد من هذه أعضاء تخدمه، ولا يتمّ لشيء من هذه الفعل إلّا بما يصل إليها من ذلك الرّوح على الطّريق الّتي تُسمّى عصبًا. ومتى انقطعت تلك الطّرق أو انسدّت تعطّل فعل ذلك العضو.

وهذه الأعصاب إنّما تستمدّ الرّوح من بطون الدّماغ، والدّماغ يستمدّ الرّوح من القلب، والدّماغ فيه أرواح كثيرة؛ لأنّه موضع تتوزّع فيه أقسام كثيرة، فأيّ عضو عَدم هذا الرّوح بسبب من الأسباب؛ تعطّل فعله، وصار بمنزلة الآلة المطروحة الّتي لا يصرفها الفاعل ولا ينتفع بها.

فإن خرج هذا الرّوح بجملته عن الجسد أو فَنِيَ أو تحلَّل بوجه من الوجوه، تعطّل الجسد كلّه، وصار إلى حالة الموت، فانتهى به إلى هذا من منشئه، وذلك أحد وعشرون عامًا" (حليم 82 وهنداويّ 17).

وبتتبّع هذه الرّوح في الأجسام الحيّة، وبعد مغادرتها، ونظره في ذوات الصّور حوله؛ يلوح له أنّ الأفعال الصّادرة عنها ليست لها في الحقيقة، وإنّما هي "لفاعل يفعل بها الأفعال المنسوبة إليها" (حليم 93 وهنداويّ 25). وقد أكّد ابن طفيل هذا المعنى باستشهاده بقول الرّسول صلّى الله عليه وسلّم: (كنت سمعه اّلذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به) (صحيح البخاري/حديث رقم6502 ، مج 3/2873). وبقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ (الأنفال 17).

وقال فيه إنّه: "هو الموجود المحض الواجب الوجود بذاته المعطي كلّ ذي وجود وجوده، فلا وجود إلّا هو؛ فهو الوجود وهو الكمال وهو التّمام، وهو الحسن، وهو البهاء، وهو القدرة، وهو العلم، وهو هو و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾" (القصص 88) (هنداويّ 31).

1. **تكرار عدد من الألفاظ الطّبّيّة التّخصّصيّة:**

امتلأت القصّة بعدد كبير من المصطلحات التّخصّصيّة والأدوات المستخدمة والكلمات الطّبّيّة الدّقيقة، وقد سبق ذكر عدد متنوّع منها في ثنايا الصّفحات السّابقة. وهي مصطلحات وُظّفت في سياقها الملائم، وإن أدرجت في تخصّصات أخرى غير الطّبّ، كالدّين، واللّغة، والفلسفة، وعلم النّفس... وغيرها من العلوم البينيّة المترابطة. ومن أمثلة ذلك:

* كلمة تشريح (anatomy): وقد وردت مرارًا أثناء الحديث عن تشريح جثّة الظّبية الأمّ، والحيوانات الأخرى. (انظر مثلا: هنداويّ 16)
* كلمة آفة: تكرّرت كثيرًا في حادثة موت الظّبية، والبحث عن سبب تلك "الآفة" الّتي لحقت بها، والأعراض الّتي انتابتها، وتركتها على هذه الحال الّتي لم يألفها من عدم حركة، أو تجاوب معه على غير ما كانت عليه قبل ذلك.
* كما تشابهها كلمات أخرى، مثل: العلّة والعطل، وما يتعلّق بهما من خراب، وتخريق: وقد ذكرت أثناء تشريح جثّة الظّبية، وغيرها من الكائنات؛ في رحلة البحث عن سبب الوفاة، ومعرفة عللها، وما يعتريها من تغيير. (انظر مثلًا: هنداويّ 14)
* الرّوح، وترد في القصّة مذكّرة، كما في النّصّ السّابق في قوله: "ذلك الرّوح الحيوانيّ واحد" (هنداويّ 17). وقال بهذا التّذكير "أبو الحسين التَّستُريّ" (ت 361 هـ): "الرّوح: مذكّر. فإن رأيته مؤنّثًا فإنّما يعنى به النّفس" (79). وترد في (لسان العرب)، مذكّرة ومؤنّثة: "الرُّوحُ: النَّفْسُ، يذكّر ويؤنّث" (مج 3/1768).

وفي تعريف الرّوح فلسفيًّا يرد في (معجم المصطلحات والشّواهد الفلسفيّة، ص 223-224) أكثر من قول؛ فالرّوح "مبدأ الحياة في البدن، فإنّ من شرط حياته سريان الرّوح فيه كسريان ماء الورد في الورد." (حسب الكشّاف للتّهانويّ)، وهي كذلك "الجوهر العاقل المدرك لذاته من حيث هي مبدأ التّصوّرات، والمدرك للأشياء الخارجيّة من جهة ما هي مقابلة للذّات. والرّوح مقابلة للمادّة وللبدن." كما أنّ الأرواح الحيوانيّة عند ديكارت هي أجزاء لطيفة من الدّم تنتشر من القلب إلى الدّماغ، ثمّ إلى سائر أجزاء الجسم بواسطة الأعصاب." والرّوح عند هيجل هي وحدة الوعي الذّاتيّ، وهي الوعي المتحقّق في العقل، وهي تقهر ما هو طبيعيّ، وتحقّق ذاتيّتها في عمليّة الوعي الذّاتيّ (جلال الدّين 223-224).

وتقارِب هذه التّعريفات ما أراد ابن طفيل التّعبير عنه في قصّته، مع ربطها قبل كلّ شيء بالله عزّ وجلّ، وبأنّه هو موجد هذه الرّوح ومحلّها في تلك الأجساد على اختلاف هيئاتها.

* الدّماغ، والقلب، والكبد: وهي كذلك مرتبطة بالرّوح وبأعضاء الجسد، ولكلّ منها وظيفته، وتموضعه، كما في النّصّ المقتبس السّابق في الحديث عن "طبّ الحواسّ".
* وكلمة عضو بصيغة المفرد، وبصيغة الجمع أعضاء: وقد انتشرت بكثرة في ثنايا القصّة عامّة.
* ومثلها كلمة جسد بصيغة المفرد، وبصيغة الجمع أجساد، وشبيهتها جسم وأجسام. ويرتبط بها بدن وأبدان، وجرم وأجرام، وشخص وأشخاص، وشيء وأشياء... وغيرها. وهي من المصطلحات المنضوية على أكثر من رأي وتعريف ودليل.

ويأتي الجسم: ليجمع بين الحياة والرّوح والجمال، بينما يتميّز الجسد بمعنى الخلوّ من الرّوح، وفي جانب ثالث قد يُذكر البدن المتميّز بالضّخامة.

* وفي فروق لغويّة أخرى فإنّ الجرم هو الخلقة الّتي خلق عليها الشّيء، وهو الجسم المحدود، والجسم هو: "الطّويل العريض العميق"، أو هو الشّيء المؤطّر بهذه الثّلاثة؛ من طول وعرض وعمق، وهو اسم عامّ يقع على الجرم والشّخص والجسد، (العسكريّ 152 وحليم 86 وهنداويّ 24)، بينما يفيد الجسد الكثافة.

 وفي التّفرقة بين الجسد والبدن والجسم يكون البدن ما علا من جسد الإنسان، "وجسم الإنسان كلّه جسد، والشّاهد أنّه يقال لمن قطع بعض أطرافه إنّه قطع شيء من جسده، ولا يقال شيء من بدنه، وإن قيل فعلى بعد، وقد يتداخل الاسمان إذا تقاربا في المعنى، ولمّا كان البدن هو أعلى الجسد وأغلظه قيل لمن غلظ من السّمن في بدن هو بدين" (العسكريّ 153-154).

1. **معرفة** **النّار** **وتعوّد** **أكل** **اللّحم**:

في رحلة حيّ بن يقظان مستكشفًا جزيرته النّائية، يحدث أن اشتعلت النّار في إحدى الآجام؛ فهاله ما رأى من منظر، تقع عليه عينه للمرّة الأولى، وكعادته في حبّ المعرفة والاستطلاع، يحاول أن يلمس هذه النّار بيده، فتحرقه، فيحاول مجدّدًا الإمساك بقبس منها، مستعينًا بجزء يابس من عصا كان قد اشتعل طرفها، فينجح في تجربته الأولى، ويحصل على القبس، ويحمله معه إلى مسكنه، في فرح وحبور، ويحافظ على اتّقاد هذه النّار ما أمكن، مستخدمًا الحشائش والأخشاب. وكان ممّا رماه في موقدها بعض الكائنات البحريّة التّي ألقاها إليه البحر؛ فأنضجتها النّار، وانتشرت رائحتها؛ داعية إلى تذوّقها؛ فاستساغ طعمها، وكرّر التّجربة الواحدة تلو الأخرى مع غيرها من الكائنات الّتي كان يصطادها.

وباتت النّار له خير مؤنس ومضيء في ظلمات اللّيل، وخير مطعم، ومدفئ، وحامٍ. وكان يربطها بالأجرام السّماويّة في السّموّ والتّحرّك إلى الأعلى.

وبلغ من شدّة تعلّقه بها أن ظنّ أنّ الشّيء "الذي ارتحل من قلب أمّه الظّبية الّتي أنشأته كان من جوهر هذا الوجود أو من شيء يجانسه، وأكَّد ذلك في ظنّه ما كان يراه من حرارة الحيوان طول مدّة حياته، وبرودته من بعد موته" (هنداويّ 16)؛ فعمد إلى تشريح جسد حيوان، وهو لا يزال حيًّا، حتّى وصل إلى قلبه، وإلى المكان الّذي يرجو أن يجد فيه مطلبه، فرأى فراغًا "مملوءَا بهواء بخاريّ يشبه الضّباب الأبيض، فأدخل إصبعه فيه؛ فوجده من الحرارة في حدّ كاد يحرقه، ومات ذلك الحيوان على الفور". وعلم أنّ هذا الشّيء هو ما يحرّك الحيوانات حال بقائها، ومتى غادرها ماتت (هنداويّ 16)، و(انظرحليم 81).

وليدخل في مرحلة أخرى من التّجارب الحيويّة في تشريح تلك الحيوانات الحيّة والميتة، والبحث في أعضائها، وهيئاتها، وانتظامها، وكميّاتها، واستمدادها الحياة من ذلك البخار الحارّ، ومدّة بقائه فيها... إلى غيرها من الدّلائل الّتي مكّنته من تأكيد ربطه بين تلك الرّوح الواحدة المتشابهة إلى حدّ كبير في أغلب المخلوقات، وبين تلك الأجساد المتعدّدة (حليم 81-82 وهنداويّ 16-17).

1. **تعدّد الأدوات والأطعمة:**

مع اهتداء حيّ إلى النّار بدأت رحلة طعام وغذاء أخرى، غير الشّواء، إذ استمرّ في تطوير قدراته في الصّيّد وأدواته؛ من حبال، وخيوط، وحجارة، وعصيّ الزّان أو القصب القويّ، وقرون البقر الوحشيّ الّتي يحدّدها بشكل مناسب لغرضه من صيد أو بناء، أو دفاع عن النّفس... وغيرها.

كما راض بعضًا من الخيل البرّيّة والحمر الوحشيّة، واستعان بها في الرّكوب ومطاردة الحيوانات.

واستأنس الطّيور الجارحة، واستعان بها في الصّيد، وأفاد من بيض الدّواجن وفراخها (هنداويّ 18 وحليم 83).

وراقب الحيوانات والنّباتات، ضمن ما راقبه، فوجدها مشتركة في التّغذّي والنّموّ. فالتّغذّي: "هو أن يخلف المغتذي بدل ما تحلّل بالفعل منه، بواسطة قوّة الغاذية الّتي تحيل ما حصل له كمال الاستعداد، بسبب القوّة الهاضمة من الغذاء بالقوّة الواصلة بواسطة الجاذبيّة إلى مشاكلة جوهر المغتذي؛ حفظًا لشخصه وتكميلًا لمقداره. والنّموّ: هو الزّيادة بواسطة القوّة النّامية (هنداويّ 22-23 وحليم 85-86).

1. **الاقتصاد في الطّعام، والحفاظ على التّوازن الدّاخليّ والخارجيّ:**

يدخل ضمن (سرد الطّبّ) في هذه القصّة موضوع الاكتفاء بالنّزر اليسير من الأطعمة، وبما يقيم الأود، وتقليل تناول لحم الحيوان إلى الحدّ الأدني، والاستعاضة عنه بتناول النّباتات والأعشاب، ما أمكن، ودون إسراف.

ويأتي هذا القرار بعد تأمّل عميق في الكون وأفلاكه المترامية الأطراف، والمقارنة بين العوالم الأرضيّة بحيواتها الحيوانيّة والنّباتيّة، والأجرام السّماويّة العليا بكواكبها ونجومها وأجرامها، والرّبط بين هذه كلّها والذّات العليّة الّتي أوجدتها، وكانت سبب كلّ هذا الاتّساق، وهذه العظمة.

وكان حيّ كلّما حاول الاقتراب من هذه الذّات وتأمّل بديع صنعها في الخلق؛ هفت نفسه إليها، وتعلّق بها حدّ الشّغف. وكان يرى أنّ تقوية القرب من الموجود الواجب الوجود لا بدّ له من تمرّن واعتدال، ومن تخلّ قدر المستطاع عن كلّ ما يشغله عن مناجاته والأنس به، وأنّ الارتقاء إلى هذه المرحلة سيمرّ به في طرق من المعاناة وترويض الرّوح والجسد، "فإمّا أن يتخلَّص من تلك الآلام بعد جهد طويل، ويشاهد ما تشوَّق إليه قبل ذلك، وإمّا أن يبقى في آلامه بقاءً سرمديًّا.. بحسب استعداده لكلّ واحد من الوجهين في حياته الجسمانيّة" (هنداويّ 33).

وقد علم أنّ لديه شبهًا بثلاثة أمور، ينبغي عليه الانتقال خلالها من أوّلها إلى آخرها؛ ليرتقي من عمل التّشبّه الأوّل بالحيوان غير النّاطق، حيث البدن المظلم الآيل إلى الفساد، إلى عمل التّشبّه الثّاني بالأجرام السّماويّة، حيث الرّوح الحيوانيّة الشّفّافة السّامية، إلى عمل يتشبّه به بالموجود الواجب الوجود؛ ويكون هو الّذات الّتي عرف بها ذلك الموجود الواجب الوحود؛ للوصول إلى المبتغى من الإقبال والمشاهدة بالفعل، وعدم الإعراض عنه طرفة عين.

وفي سبيل هذا الهدف كانت ضرورة التّخلّي عن كلّ زائد فائض عن حاجته، والعمل بمبدأ الاقتصاد وعدم الإسراف في تناول ما يحفظ له حياته؛ حتّى لا يكون من المعترضين على ما أنعم الخالق عليهم، فتركوها وزهدوا فيها. وكان له أن نظر في أجناس ما يتغذّى بها؛ فرآها منقسمة إلى ثلاثة أنواع: (حليم 110-111 وهنداويّ 39-40).

* نبات لم يكتمل نضجه بعد، ومنه صنوف البقوليّات.
* ثمر النّبات النّاضج الّذي يمكن استزراع بذوره، والحفاظ على جنسه، ومنه الفواكه رطبها ويابسها.
* حيوان يتغذّى به؛ برّيًّا كان أو بحريًّا.

فرأى أن يأخذ منها ما يحافظ على بقائه، شرط أن يتناول أكثرها وجودًا وإمكانيّة للإكثار، وألّا يستأصل منابتها، ولا يُفسد بذورها؛ فيبدأ بذات البذور، كالتّفاح والكمثرى ونحوهما؛ لأنّها قابلة للاستزراع، إن هو لم يأكل بذورها ولم يفسدها، ولم يلقها في مكان لا يصلح مستقبلّا للإنبات، فإن تعذّر عليه إيجاد تلك الثّمار؛ فليأكل غيرها من جوزٍ وبقولٍ لم تنضج بعد، فإن عدم كلّ ذلك فليلجأ إلى الحيوان أو بيضه، شرط أن يأخذ أكثره وجودًا، وألّا يعرّض أيّ نوع لخطر الفناء، وأن يكون كلّ ذاك بما يسدّ الجوع لا أكثر.

وليكمل حماية جسده فقد بنى له المسكن المناسب، الذّي يقيه الحرّ والبرد وتقلّبات الجوّ، واستعان بجلود الحيوانات في السّتر والتّدفئة، وكان حفاظه على جسده سبيلّا إلى إبقاء ما لديه من قوّة يستطيع بها مناجاة ربّه والانقطاع إليه.

كما أنّه عمل بمبدأ إصلاح بيئته ما استطاع إلى ذلك سبيلًا؛ فيزيل الأذى عن النّبات والحيوان، ويساعد ما تألّم أو جرح من حيوان، وما احتاج إلى رعاية وسقيا من نبات. وليرتقي مع الوقت في السّموّ، والأنس بخالقه.

وإنّ العمل على تزكية النّفس، والحفاظ عليها، والسّعي إلى تهذيبها، لهو عمل بالفطرة الإنسانيّة السّويّة، وبدين الفطرة الحقّ الّذي يؤكّد ضرورة التّوازن النّفسيّ والرّوحيّ والجسديّ. وقد جاء في محكم التّنزيل العزيز قوله سبحانه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (النّحل 114–116). وقال المُشرِّع الأعظم للكون كلّه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف 31)، وهو الأعلم بخلقه، ومخلوقاته، وطبيعتهم، واحتياجات أجسامهم وأرواحهم.

وها هو رسول الإنسانيّة جمعاء صلّى الله عليه وسلّم يقول: (ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شرًّا من بطنِه، حسْبُ ابنِ آدمَ أُكلاتٌ يُقمْنَ صلبَه، فإن كان لا محالةَ؛ فثُلثٌ لطعامِه، وثلثٌ لشرابِه، وثلثٌ لنفسِه) (أخرجه التّرمذيّ، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، حديث رقم 2380، ص 722، وقال: حديث حسن).

وليأتي الطّبّ قديمه وحديثه ليؤكّد هذه التّعليمات والكلمات الموجّهة، والنّافعة لكلّ إنسان، في كلّ زمان ومكان.

**الخاتمة:**

استعان ابن طفيل بالسّرد في (حيّ بن يقظان) ليشكّل قالبًا يبثّ أفكاره ورؤاه، وسعى إلى توظيف العلوم والمعارف الّتي خبرها لتأكيد ما أراد إيصاله، عبر مسحة أدبيّة تخفّف جفافها وصعوبتها. وكان من بين هذه العلوم علم الطّبّ الّذي برع فيه، واشتغل به، فعمل على توظيفه في ثنايا قصّته الفلسفيّة ذات الأبعاد الإنسانيّة العميقة، وظهرت بذلك إشارات السّيميائيّات الطّبّيّة فيها؛ فتارة يلج عوالم التّشريح مستخدمُا مصطلحاته وطرائقه وأدواته، وتارة يفصّل في ذكر أجزاء الجثث والأجساد وأقسامها، وتارة يلجأ إلى النّار وربطها بالرّوح، واختبار التّجارب الأولى في تعرّفها، والأنس بها، وتذوّق ما يشوى عن طريقها، وتارة يذهب إلى النّبات والحيوان في الاغتذاء بهما بقدر يسير، والحفاظ على التّوازن الدّاخليّ والخارجيّ، ومقارنة الذّات بالآخر وبالمحيط الأرضيّ والسّماويّ. وجعل ذلك وسيلة لغاية أسمى؛ هي الارتقاء بالنّفس، وإعمال العقل الحيّ اليقظ، والاستناد إلى الفطرة السّليمة، وإمكانيّة الاكتفاء بالأنا الفرديّة دون الاستعانة بالآخر؛ لنيل شرف معرفة الموجود الواجب الوجود، والاقتراب منه، وتعظيمه، والأنس به.

**قائمة الأعمال المقتبسة**

القرآن الكريم.

**المصادر**

ابن طفيل، محمّد بن عبد الملك بن محمّد (ت 581هـ)، حيّ بن يقظان، القاهرة: مؤسّسة هنداويّ للتّعليم والثّقافة، 2013م.

—، *حيّ بن يقظان،* كلاسكيّات *الأدب*، تقديم صلاح فضل، تعليق عبد العزيز نبوي، ط3، القاهرة: الدّار المصريّة اللّبنانيّة، 2018م.

محمود، عبد الحليم*، فلسفة ابن طفيل وقصّته (حيّ بن يقظان)*، ط2، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة، (د. ت).

**المراجع**

ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم (ت 668هـ)، *عيون الأنباء في طبقات الأطباء*، تحقيق نزار رضا، بيروت: مكتبة الحياة، (د. ت.).

ابن الخطيب، لسان الدّين (776هـ)، *الإحاطة في أخبار غرناطة*، تحقيق محمّد عبد الله عنان، مج2، ط1، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1394هـ/1974م.

ابن سينا، الشّيخ الرّئيس أبو عليّ الحسين بن عبد الله (427هـ)، *تسع رسائل في الحكمة والطّبيعيّات*، ط2، القاهرة: دار العرب للبستانيّ، (د. ت.).

ابن منظور، محمّد بن مكرم بن عليّ (ت 711هـ)، *لسان العرب*، تحقيق الكبير، عبد الله عليّ وآخرَين، مج 3، القاهرة: دار المعارف، (د. ت).

البخاريّ، محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفيّ (ت 256هـ)، *صحيح البخاريّ*، مج 3، كراتشي، باكستان: البشرى، 1437هـ/2016م.

التّرمذيّ، محمّد بن عيسى بن سَورة (ت 279 هـ)، *الجامع الكبير "سنن التّرمذيّ"*، تحقيق عصام موسى هادي، الجبيل، المملكة العربيّة السّعوديّة: دار الصّدّيق، (د. ت).

التَّستُريّ، أبو الحسين (ت 361 هـ). *المذكّر والمؤنّث*، تحقيق أحمد عبد المجيد هريدي، ط1، القاهرة: مكتبة الخانجيّ/الرّياض: دار الرّفاعيّ، 1403هـ/1983م.

العسكريّ، أبو هلال (ت 395هـ)، *الفروق في اللّغة*، تحقيق لجنة إحياء التّراث العربيّ في دار الآفاق الجديدة، ط4، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1400هـ/1980م.

جيرو، بيير. *علم الإشارة- السّيميولوجيا*، ترجمة منذر عيّاشي، تقديم مازن الوعر، دمشق: دار طلاس، 1992م.

حِتّي، يوسف، وأحمد شفيق الخطيب، *قاموس حِتّي الطّبّيّ الجديد (HITTI’S NEW MEDICAL DICTIONARY)*، ط1، مكتبة لبنان، 2011م.

سعيد، جلال الدّين، *معجم المصطلحات والشّواهد الفلسفيّة*، تونس: دار الجنوب للنّشر، 2004م.

عليّ "المعمريّ"، هيام عبد الكريم، *دور السّيمائيّة اللّغويّة في تأويل النّصوص الشّعريّة*، رسالة ماجستير غير منشورة، كلّيّة الدّراسات العليا، الجامعة الأردنيّة، 2001م.

محمود، عبد الحليم*، فلسفة ابن طفيل وقصّته (حيّ بن يقظان)*، ط2، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة، (د. ت).

G., Alejandro Goic, “Sobre el origen y desarrollo del libro Semiología Médica” (*Origin and development of the book Medical Semiology*), Rev Med, chile, 2018, 146: 387–390.